

الفصل الثاني

هديه في الشجاعة ﷺ

١- اجتماع الصفا

ما إن سمع القرشيون صوت النذير يناديهم حتى هبوا مسرعين نحو الصفا بالقرب من الحرم ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات التساؤل ، واللهفة على معرفة جلية الخبر ، فصاحب الصوت كان معروفا لديهم وهو الصادق المصدوق الأمين عندهم ، فممن ينذرهم يا ترى ؟ لا بد وأن هناك حدث جلل في طريقه إليهم ، وقد أخذوا في الاحتشاد حول الصفا وقد ذهبت بهم الظنون كل مذهب ، وطفق كل منهم يقلب ما في نفسه وما في نفس غيره من هواجس ويتحدث بما يساوره من مخاوف ، وقد اتجهت الأفكار إلى أن خيلا تستعد للغارة عليهم .

ولما اكتمل الحشد بادرهم رسول الله ﷺ بقوله " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل أكنتم مصدقي ؟ " .

قالوا : نعم . ما جربنا عليك كذبا قط .

فقال ﷺ : " فإني نذير لكم من بين يدي عذاب شديد " .

ونادى رسول الله ﷺ بطون قريش بطناء ، بطناء ، فقال : " إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا في الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله " .

وأخذت الحمية ، حمية الجاهلية الأولى أبا لهب ، وثارَت فيه الغيرة على آلهته فقال " تبا لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا " .

"تبت يدا أبي لهب وتب ، وما الذي يستحق الاجتماع في نظره ؟ أهو حماية الأصنام وهي سر كل بلاء مستطير ! وإذا كان الاجتماع واجبا لدفع غارة مفاجئة حرصا على المال والبنين ومتاع الحياة ، وأي حياة ؟ حياة لا هدف لها ولا غاية ولا نظام ! وما دام الاجتماع هنا واجبا مفروضا ، فهو أوجب إذا ما تعلق بإنقاذ البشر من الشقاء الأبدي وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان بالله تعالى . وقد بين لهم صلوات الله وسلامه عليه أن اجتماعهم هذا لدفع عذاب أشد هولا من عذاب القتال ومصادمة العدو في الميدان ، فإذا كان دفع المغير عليهم واجبا ، فإن دفع عذاب الشرك والكفر فرض لا مناص منه ولا مهرب ، وقد يظن البعض منهم أن قرابته ستفعله ولو بقي على شركه كما هو المعتاد عند العرب في نظرته إلى القرابة ، فنفى رسول الله ﷺ عنهم هذا الخاطر وأخبرهم أن الذي يستفيد منه ﷺ كل خير هو من آمن به وصدق به .

دعا رسول الله ﷺ أهل مكة بما ألفوا الاجتماع عليه إذا دهمهم خطب حتى لا يتخلف منهم متخلف ، ثم بدأهم بقضية مسلمة في صورة سؤال يدور حول ما يجول في نفوسهم ، فيكون ردهم معبراً عن الحقيقة بلا لف أو دوران أو جدال ، ولو كانت المسألة تدور حول الحق الذي ينكره الخصم ، إذا لاستفاض الحديث وانفض الجمع دون سماع باقيه ، ولفأت الثمرة من الاجتماع ؛ فسرعة مباغته الحشد بالحجة تكون ضرورية لنجاح الغرض المقصود منه ، فسألهم صلوات الله وسلامه عليه سؤالا يؤدي إلى أخذ إقرار جماعي منهم عن طوعية واختيار بصدقه ﷺ في جميع ما سيخبرهم به .

وهم بإجابته قد لزمتهم الحجة دون أن يشعروا بما سيقال لهم ، وهم بتنزيههم المخبر عن الكذب ، قد برأوه من جميع الصفات الممقوتة التي تلازم هذه الخصلة وهي مما لا يخفى على أحد : فالكذاب يكون جبانا ، ويكون حقيراً ،

ويكون ذليلاً ، ويكون منافقاً ، ويكون مرأثياً ، ويكون فانتنا مفتونا الخ ... وهم إذا أقرّوا بصدقه صلوات الله وسلامه عليه في جميع ما يخبر لزمهم من التسليم بذلك الإيمان بالرسالة في الحال .

وإذا أخذ منهم رسول الله ﷺ إقراراً جماعياً بتصديقه ، دعاهم إلى الإيمان بالله تعالى فكان الواجب عليهم بناء على إقرارهم أن يؤمنوا جميعاً بلا تردد .

ولكن للنفس من دون الحق حجباً تقفل القلوب عن الإصغاء للحق ، وتطمس البصائر عن رؤيته ، وكم من الناس من يعلم الحق ولا يتبعه ! وهم في ذلك طرائق : فمنهم من ينصرف عن الحق كبراً وحسداً ويصعر خده استهزاء أو يخشى اتباعه جبناً ، أو يحول بينه وبين الحق تمسكه بالعادات والتقاليد مهما كانت باطلة ، والعقيدة مهما بلغ انحلالها وفسادها ، فهو يقدر ما تلقنه في بيئته ولا يطيق الجدل فيه ، ويصير في نظره فيصلاً بين الحق والباطل ، وقاضياً يحتكم إليه عند أي خلاف ، ومنهم المصاب بكسل عقلي هو أشد خطراً من النقص العقلي الطبيعي ، فلا يقبل التفكير في الجديد ، ويرفض أي تغيير فيما تعلمه ؛ ومنهم ضعيف الثقة في النفس المتردد في الرأي ، فهو يتهيب دون إعطاء أي حكم ، ومنهم من يعرض عن الحق لأنه في ظنه يتعارض مع مصالحه الذاتية ، فيتعلل بعدم قبول الحق بعلى لا تمت إلى ما يدور في نفسه .

عقيدة التوحيد القرآنية مصدر كل كمال :

دعا رسول الله ﷺ الحشد إلى عقيدة التوحيد وهذا من جوامع خطابه ﷺ :
فكل خير إنما هو مجمل ومفصل في شهادة التوحيد ، فالكمالات الثابتة الحقيقية المفضية إلى سعادة الإنسان في الدنيا والفوز المبين في الآخرة لا تتم

إلا بالشهادة الجامعة لفحوى الرسالات (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وإن
البشر لا يزالون بخير ما اتجهوا إلى تعاليم هذه الشهادة الجامعة .

إن مصدر جميع الكمالات التي لا تنتهى هو الله سبحانه وتعالى ، فإما أن
تتصل النفس بالكمال الإلهي المطلق عن طريق الرسالات السماوية ، وإما أن
تتقطع عنه أو تتحرف بقدر بعدها عن حقيقة الرسالات الإلهية .

ومن مستلزمات عقيدة التوحيد القرآنية :

١- إسناد الكمالات المطلقة لله سبحانه ومعرفة ما يليق بالربوبية من الصفات
والأسماء الحسنى ، وبذا تنفتح أبواب الكمال المطلق أمام الإنسان إذ من هذا
الكمال الإلهي يتفجر كل كمال ، وإن الحادث يستحيل أن يصدر عنه الكمال
صدورا ذاتيا : إذ لو كان الأمر كذلك لكان في استطاعة كل فرد أن يخص
نفسه بجميع الكمالات .

وما دام الكمال صادرا عن الله عز وجل ، فإن الانقطاع عن الوحي السماوي
إنما هو انقطاع عن مصدر الكمال المطلق ، وهذا الانقطاع يؤدي إلى حبس
النفس داخل الأبعاد التي يرسمها الإنسان ، وهي أبعاد مصطنعة تضيق وتتنوع
بقدر ما ينصبه الإنسان لنفسه من مثل يهتدي بهديها . ومهما بدأ مثل هذا
الفرد رفيعا عاليا في المظهر ، فإنه في الحقيقة لا ينفك عن الدوران حول
نفسه داخل الحدود التي رسمها . والبعد عن الوحي السماوي يؤدي إلى
الاحتجاب عن الكمال المطلق الذي يليق بالله عز وجل والجري وراء كمالات
نسبية طبقا لما تسوله النفس التي توجد كمالات ظنية لا وجود له في الواقع ،
ولا خلاص من هذا السجن الرهيب الذي يصنعه الفرد لنفسه إلا بالاهتداء بما
جاء به خاتم النبيين ﷺ .

٢- وحدة الإنسانية : فصاف الإنسانية ففءأم أن فكون واحدة ولن فكون فذلك إلا إذا كان مبدءها وخالقها واحدة . أما إذا فعدد المصدر فمعنى فذلك أن الإنسانية ففعدد صفافها ففقا لفعدد الأفراء ، وهذا ففعدد وذلأ الفباين يا لففه فلفيها فقط بل إنه فصورها ففصورا مزورا ، فالإنسانية لا ففوء لها فعفداً عن عقفدة الفوففء القرآففة .

٣- وحدة شخصية الإنسان : فصاف الإنسان وعواففه ووففوءه ففها ففءر عن مصدر واحد ، فلا ففب إلا الله ولا ففبفب إلا فف الله ولا ففشى إلا الله ، ولا فففق إلا فف سبفل الله : ففففففب أبواب الفمال أمام الإنسان الفف لا فففه إلا إلى الله سبفانه ، أما إذا فعدد المصدر فمعنى فذلك انقطاع الففة الوجدانفة للإنسان عن الفمال الفففف وفسوءعها للمفسوساف الفف ففقم الفرد الوجود على ضوفها ، و معنى هذا فكففف الوجود الإنسانف ففقا لفقم فاففة مزورة لا أساس لها ، ففه ففعدد ففقا لفنظر كل فرد ، وففعارض إلى فرفة أن بعضها فلفف البعض ، وفكون عءمها شرا من وففوءها ، إذ ففقطع صلفها بالمصلحة العامة للإنسانية ، وفسؤف إلى اضطراب وفضارب الففمفعاف ففما ففبها وفساد العلاقات الفف فربطها .

وعقفة الفوففء ففقففف وحدة مصدر الإلزام : فالإنسان لا فراعف إلا الله ولا ففشى إلا الله ، أما إذا فعدد المصدر ففإن الإنسان لا فراعف سوى وسائل الضبف الاجتماعف ، ومعنى هذا أن المفعم ففب الرقفب الفف ففبفب سلوك الفرد ، وللفرد أن فآف ما فشاء من الشر إذا ما أمن فانب هذا الزاجر .

٤- ومن مستلزمات عقيدة التوحيد القرآنية حب الخلق في الله وهذا هو الحب اللانهائي الصحيح . أما إذا تعدد مصادر هذا الحب فإن كل إنسان يخضع في حبه للغير للمقاييس التي ألفها واعتادها وهي تتسع وتضيق طبقاً لإدراك الفرد وتكوينه النفسي ووسطه الاجتماعي ، وليس في طاقة الإنسان أن يحب للناس جميعاً السعادة الشاملة الكاملة إلا إذا آمن بعقيدة التوحيد ، فحينئذ يتفجر من حبه للخالق كل خير يستطيع أن يوصله للمخلوق وكل خير تسعه طاقته .

٥- ومن مستلزماتها تكامل الأخلاق الفاضلة في الإنسان : إذ يتصف بالحرية الحقّة التي تصدر عنها العدالة والإحسان والعفو والرحمة إلخ ... وتولد في الإنسان الشجاعة الحقّة المتجهة بجميع ضروبها وأشكالها الحسية والمعنوية نحو الصلاح الكامل ، وهذا المستوى الإنساني من مستويات الشجاعة لا يتدفق إلا من عقيدة التوحيد التي تحرر النفس من جميع مظاهر الاستعباد : المادي والروحي والاجتماعي ، فلا يعرف الإنسان سوى التفاني في مرضاة الله عز وجل .

٦- ومن مستلزماتها الاقتداء برسول الله ﷺ والحرص على اتباعه وهذا هو الطريق الوحيد والصراط المستقيم لمرضاة الخالق سبحانه وقد أرشدنا إلى ذلك سيد العلماء بالله تعالى لحرصه على هدايتنا فقال ﷺ " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " .

فعقيدة التوحيد القرآنية هي السبيل العلمي الوحيد لتحقيق السعادة الأبدية وهي السبيل العلمي الوحيد للحيلولة دون نشر الفساد في الأرض ، وأن الإنسان إذا ما انحرف عنها غرق في بحر لجي من الأهوام والخيالات . ولا يزال يسبح في ظلمات متراكمة ، تغزوه الشكوك من كل باب حتى تأتي سكرة الموت بالحق فيعلم ما كان عنه يحيد من عقيدة التوحيد القرآنية .

ولك أن تتأمل في موقفه صلوات الله وسلامه عليه حينما حشد أهل مكة ودعاهم إلى عقيدة التوحيد ، ولنتصور هذا الموقف أضرب لك مثلا : هب أن إنسانا قد جمع كبار رجال الدول وخطب فهمم محبذا مذهبيا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا لا يؤمنون به ! هل يستطيع أن يفعل هذا ؟ وإذا ما فعل فما الذي يحدث ! إذا ؟ فما بالك بمن جمع أشرف قومه وعامتهم ودعاهم إلى ترك عقيدتهم والإيمان بالله عز وجل وحده ، وأنت تعلم حالة الإنسان إذا ما هوجمت عقائده . هذا النوع من الشجاعة لا يكون إلا في رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فهم يصرفون كل شيء الله وحده ولا يبالون بغيره عز وجل .



obeikandi.com

٢ - مالك يا أبا الحكم !؟

كان أبو جهل لا ينفك عن مخزومياته : فلا يجتمع إلا ليتأمر ، ولا يتحدث حديثاً يخلو من إيذاء المسلمين ، قد قتل الشر فيه عنصر كل خير ، وأجربت نفسه ، فلا يتلذذ إلا بحك موضع المرض منه ، ولا يرتاح إلا بإثارتة وفي يوم من أيامه النحسات فكر وقدر ثم قتل كيف قدر ، إذ جاء يسعى إلى ناديه وقد ظن أنه قد حسم المرض الذي يأكل قلبه ، وهو لا يعلم أنه يزيد في وقته كلما حركه ، فوقف على كبار قريش يقول (يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آرائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيع حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت^(١) به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني . فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم .) قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أعد حجراً كما وصف وجلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وبكر الذين وافقوه بالأمس فجلسوا مجلسهم ينتظرون ما يفعله أبو جهل ، وكل قد أخذ أهبطه لما سيحدث .

وغداً رسول الله ﷺ ، فقام يصلي في الحرم وكان يجعل الكعبة بينه وبين المسجد الأقصى . فلما سجد صلوات الله وسلامه عليه ، احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل ، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ سقط منه الحجر ورجع منهزماً مرعوباً منتقع اللون ، حتى وقف على أصحابه الذين دهشوا لما يحدث فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟

(١) شدخست .

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيته مثل هامته ولا مثل قصرته^(١) ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني .

من مناورة أبي جهل يتضح لنا أن الباطل لا يستند في حجه إلا على باطل مثله ، ويلتمس صاحبه جميع المبررات المزورة التي تروج في المجتمع ليحصل بذلك على تأييده ، وهذا هو ما نسميه باستغلال الشعارات المزيفة : لذا نراه قد وقف موقف المدافع عن الآلهة وعن شرف الأجداد ، وهو يطلب "رد الاعتبار" لما لحق بقومه من إهانة آلهتهم . ثم إن المبطل يحاول أن يصل إلى غرضه بدهاء فنجد أن أبا جهل :

١- يحاول أن يتكئ على ما يثير النخوة في نفوس أصحابه حين اعتبر أن تقويض الآلهة إنما هو تسفيه لعقولهم وشتم لأبائهم .

٢- ويهرب من مواجهة الحق فلا يناقش ما دعا إليه الإسلام ويقارنه بما هم عليه من شرك ، ولو فعل هذا لظهر زوره وبهتانته وزهق باطله ، وهو يظن أنه بهروبه هذا سيستر الحق عن الأعين .

٣- ويختار العبارات التي تخفي الواقع : فلم يقل أنه صلوات الله وسلامه عليه يدعوه إلى ترك عبادة الأوثان وترك الشرك بالله تعالى ويدعوه إلى الإيمان بالله وحده عز وجل إذن لو قال هذا لسقط حقه في تدبير مؤامراته بل نجده يعمد رأساً إلى ذكر الطعن في الآلهة.

(١) أصل العنق .

فالمبطل لا يعمد إلى تقرير الباطل إلا بالحيلة والدهاء . ولذا يجب على الإنسان أن يستعمل عقله ، وعليه أن يبذل ما في وسعه وأن يدبر الأمور على جميع وجوهها ليعرف الحق ويتبعه أينما كان ، وهذا هو ما تدعو إليه نصوص القرآن العظيم والسنة المطهرة .

شدة هيئته ﷺ :

ولا تفوتنا نقطة هامة وهي أن أبا جهل قد تخير لتنفيذ الاغتيال وقت الصلاة ثم لحظة السجود بالذات . لماذا ؟

إن جميع كتب السيرة قد أجمعت على أنه صلوات الله وسلامه عليه لم ير أشد منه هيبة ، وهي ليست بهيبة الملوك و الحكام ، فهذه ليست بشيء بدليل أن أصحابه رضوان الله تعالى عنهم كانوا يلقون الملوك ولا يقيمون لهم وزنا من هذه الناحية ، بل بالعكس كان الملوك يهابونهم مع بساطتهم إذ سرت الهيبة إليهم منه ﷺ فما بالك بهيبته صلوات الله وسلامه عليه ، والتي تفرضها منزلته عند الله عز وجل :

كأنه وهو فرد من جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم

وهذا يفسر لنا ظاهرة تكررت وهي أن كل من يحاول اغتياله صلوات الله وسلامه عليه نجده يرعد حين يواجهه ويسقط منه سلاحه أو يولي مذعورا — ولو تأملنا ما ثبت في صحيح السيرة لوجدنا أن هذا قد حدث للأفراد غير أبي جهل وكانوا من شياطين العرب وفتاكهم . ففي غزوة أنمار تفرقت الأعراب لما سمعت بمسير رسول الله ﷺ ، وانسل دعثور بن الحارث الغطفاني حين وجد رسول الله ﷺ مضطجعا ليستريح ووقف شاهرا سيفه فاستيقظ صلوات الله وسلامه عليه : فقال دعثور من يمنعك مني . فقال ﷺ : الله ، فسقط

السيف من يده فأخذه ﷺ ، وقال له : من يمنعك مني ؟ قال : لا أحد . وقد أسلم دعشور بعد ذلك . ومنهم شيبه بن عثمان بن طلحة في غزوة حنين ، وعامر بن الطفيل وصاحبه أربد بن قيس .

من هذا نعلم أن أبا جهل مع شراسته لم يكن في طاقته مواجهته ﷺ لشدة هيئته فاختر وقت الصلاة ثم السجود ليتم فعلته ، ومع ذلك فقد أصابه الرعب ما أصابه ، وكان كل من يريد به صلوات الله وسلامه عليه سوءا يتمثل له سوء عمله ويقف حائلا بينه وبين رسول الله ﷺ .

وعلى شدة كيد المشركين وبذلهم كل ما وسعهم في سبيل إيذائه صلوات الله وسلامه عليه كان من عاداته ﷺ أن يأتي الحرم لأن البيت لا يخلو من الطائف من أي فج فتكون الدعوة إلى الإسلام هنا أشد ظهورا من أي مكان آخر ، ولنقدر الموقف على حقيقته من ناحية الشجاعة القصوى يجب أن نعرف أن دار الندوة وهي مجمع زعماء القرشيين كانت تطل على البيت قريبة منه .

٣- " حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه "

كان زعماء المقاومة من قريش يجتمعون في دار الندوة أو عند الحجر من البيت ولا هم لهم سوى تدبير المؤامرات لوقف انتشار الإسلام وللنيل من المسلمين ، وكان ﷺ يمر بهم و هم يأترون به فلا يبال بهم ، ويقف عليهم ويدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى .

وبينما هم في مجلس من مجالسهم عند الحجر إذ مر بهم صلوات الله وسلامه عليه يطوف بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فلما طاف الثانية غمزوه بمثلها والثالثة كذلك ، فلما فرغ ﷺ من الطواف وقف عليهم وأذهرهم بما أنزله الله

تعالى من الوعيد لكل مشاق لله ورسوله ، فوجموا ولم يستطيعوا رداً ، وكأنما على رأس كل منهم طائر ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه^(١) بأحسن ما يجد من القول ، فيرفق في خطابه فيقول (انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً) فانصرف رسول الله ﷺ عنهم .

وحينئذ ندموا على ما كان منهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون : وقال " ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ! " وكبر ذلك عليهم حتى تواعدوا على النيل من رسول الله ﷺ من الغد .

وجلسوا مجلسهم في اليوم التالي وكلهم قد تأبط شراً ، وإذا برسول الله ﷺ يطلع عليهم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد و أحاطوا به يقولون مهددين " أنت الذي تقول كذا وكذا " كما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم . فيقول رسول الله ﷺ : نعم أنا الذي أقول ذلك .

وإذا بهذه الثورة التي تجيش بها نفوسهم ، وإذا بالشر الذي تكاد تتفجر منه صدورهم قد انسل ولم يبق سوى خوف ، ولم يجرؤ أحد منهم أن يعقل شيئاً سوى واحد منهم وثب وأخذ بمجمع رداءه ﷺ فدفعه الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه وهو يقول " أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله " .

(١) ليرضيّه .

obeikandi.com

٤ - لبيك ... لبيك

كان الصحب رضوان الله تعالى عليهم يقاتلون عدوا يبلغ أربعة أمثال عددهم ، وبنفس سلاحه ، بل إن العدو كثيراً ما يكون متفوقاً فيما يخص الفرد من المقاتلين من عدة الحرب ، ومع ذلك يكون نصيبهم الظفر ، وإذا حدث أي خلل أثناء المعركة وجدناه راجعاً إلى عدم الدقة في تنفيذ أمر من أمور القتال أو خطته .

قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما " ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ " . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال " كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عري لأبي طلحة وهو يقول : أيها الناس لن تراعوا ، ثم قال لأبي طلحة : إنا وجدنا فرسك هذا بحراً " - أي واسع الجري - فكان لا يسبق . وكانت النخبة الممتازة من رجال الحرب هم الذين يطبقون الاقتراب منه ﷺ إذا حمي القتال لشدة قربه من العدو . يقول فارس الفرسان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه " إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحديق ، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ﷺ ، وقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً " .

وانهزم ^(١) المسلمون يوم حنين ، وبقي رسول الله ﷺ وحده تجاه العدو ولم يثبت من صفوة الشجعان إلا القليل ، وكان ﷺ ينادي : أين أيها الناس . هلموا إلي . و أمر عمه العباس رضي الله تعالى عنه وكان جهوري الصوت أن ينادي " يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب الشجرة " يشير إلى بيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة قبيل صلح الحديبية . وما إن سمع الأنصار النداء حتى أجابوا " لبيك .. لبيك " .

فكان الرجل حين تتأخر عنه راحلته إذا أراد أن يثنيها ، أخذ عدته وسلاحه واقتحم عنها ليؤم الصوت حتى ينتهي إليه .

ولما تكامل عدد العائدين مائة ، استحر القتال ، وأخذ المنهزمون يعودون ، ورسول الله ﷺ يركض بغلته تجاه العدو ويقول : " أنا النبي لا كذب أنا بن عبدالمطلب " .

روى البخاري أن رجلا من قيس سأل البراء بن عازب " أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين . فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر . كانت هوازن رماة ، وأنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبيننا على الغنائم فاستقبلنا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان ^(٢) لأخذ بزمامها وهو يقول : " أنا النبي لا كذب " ولم تتكامل عودة باقي الجيش حتى انتهى القتال بهزيمة العدو .

ولا نعلم قائدا من القواد في التاريخ قد ثبت في مثل هذا الموطن حتى رد جيشه وانتصر ، والذي يحدث أن القائد ينهزم مع جيشه ثم يلم شعثه إذا استطاع ويعيد الكرة ثانية .

(١) ولت بنو سليم أولا ثم تبعهم أهل مكة وباقي الجيش .

(٢) هو أبو سفيان بن الحرث بن عبدالمطلب .

وبعد فإن الشجاعة مراتب .

فالذي يقاتل العدو شجاع ، وأشجع منه الذي يقاتل بدافع ذاتي ، وأشجع منه الذي يقاتل ولو بمفرده ، وأشجع منه الذي يقاتل ولا ينهزم ، وأشجع منه الذي يقاتل على هلاك خصمه ثم يبقى عليه حرصا على هدايته ، وهو أشد فرحا بهدايته من فرح هذا الخصم بها .

والذي يقول الحق ولو خالف الناس شجاع ، وأشجع منه الذي يعلن الحق بين الخاصة ، وأشجع منه من يعلنه على الناس جميعا ، وأشجع منه من يبذل ما في وسعه لهداية معارضيه ، وأشجع منه من لم يكثرث بإذابة معارضيه له .

وهكذا تتدرج مراتب الشجاعة إلى أن نصل إلى مرتبة معجزة لا يوصف صاحبها بالشجاعة كما نعلمها ، بل إن الشجاعة لتسمو بنسبها إليه ، إذ أصبحت الشجاعة ذات مدلول خاص لا يصدر إلى عن هذا الإنسان الكامل فقط .

وإن شجاعة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم تختلف عما يألفه الناس بقدر اختلاف مرتبة الرسالة عن مراتب البشر العادية .

وإذا كان مصدر الشجاعة هو الثقة بالنفس ، فأعلى منها الشجاعة التي يكون مصدرها الثقة بالله تعالى ، وأشد الناس ثقة في الله تعالى أوسعهم معرفة به سبحانه ، وأوسع الخلق معرفة بالله تعالى هو صاحب الرسالة الخاتمة للرسالات فهو ﷺ قد أوتي من الشجاعة على قدر عموم رسالته .

وإذا كانت دعوة الناس إلى الكمالات تحتاج إلى شجاعة تتناسب مع مستوى الدعوة ، والمستوى الذي عليه الناس ، فهو صلوات الله وسلامه عليه اجتمع له من الشجاعة بقدر ما اجتمع في شريعته من كمال لأن كل كمال يحتاج تقريره إلى شجاعة تتناسبه .